العرب
الإثنين 2019/07/22
السنة 42 العدد 11415

أي أميركا ستعود إلى القمر

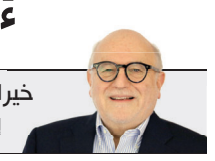

خيرالله خيرالله
إعلامي لبناني

قبل خمسين عاما، سار رجل على القمر. كانت تلك بداية النهاية للحرب الباردة التي توجت بسقوط حائط برلين في تشرين الثاني – نوفمبر 1989. تجددت هذه الحرب لاحقا ولكن بطرق ووسائل مختلفة.

هناك حرب باردة جديدة ليس معروفا كيف يمكن أن تنتهي في عالم يزداد جنونا في ظل العجز الأميركي عن أخذ العالم إلى مكان أكثر أمانا، فيما لا وجود لاستيعاب روسي لمعنى سقوط الاتحاد السوفياتي وانهياره، ولا لوعي صيني لخطورة ممارسة سياسة، تقوم على جمع الثروة، خالية من أي بعد إنساني.

لا يدلّ على مدى الانتهازية الصينية أكثر من الفيتو الذي استخدمته بيجينغ مرات عدّة منذ العام 2011 في مجلس الأمن لحماية نظام سوري لا همّ له سوى التنكيل بشعبه من أجل إخضاعه. ليس معروفا لماذا كلّ هذا الحرص الصيني على الانضمام إلى روسيا في ممارسة حق الفيتو في مجلس الأمن من أجل استمرار الحرب على الشعب السوري؟

في العشرين من تموز – يوليو 1969، كانت الخطوات الأولى لنيل ارمسترونغ، رائد الفضاء الأميركي، على سطح القمر. قبل ذلك، لم يكن سكان الكرة الأرضية يعرفون الكثير عن القمر باستثناء ما ورد في الأغاني عنه، بما في ذلك أغنية السيدة فيروز التي عنوانها "نحن والقمر جيران" (1957).

أي أميركا ستعود إلى القمر؟ هل ستكون أكثر فهما لما يدور في العالم. سيعتمد الكثير على ما إذا كانت أميركا ستعرف قبل التفكير في القمر، كيف تردّ على التحدي الذي يواجهها حاليا على الأرض واسمه إيران

احتاج الفريق المؤلف من ثلاثة رواد فضاء هم نيل ارمسترونغ وباز الدرين ومايكل كولينز إلى أربعة أيام لبلوغ القمر. كان ارمسترونغ أول من نزل على سطح القمر وتلاه الدرين، فيما بقي كولينز في كبسولة دارت حول القمر والتقطت الرائدين مجددا وأعادتهما إلى الأرض في عهد الرئيس ريتشارد نيكسون.

قام الأميركيون برحلات أخرى عدّة إلى القمر. هناك اثنا عشر أميركيا ساروا على القمر، لا يزال بينهم أربعة أحياء. لا يزال باز الدرين حيًا، قال في مناسبة الذكرى الخمسين للرحلة "كنا نشعر كفريق بثقل العالم كله على أكتافنا، كنا نعرف أنّ العالم كله ينظر إلينا، الأصدقاء كما الأعداء". في الواقع، كان العالم كلّه ينظر إلى رحلة "أبولو- 11" إلى القمر، وهل ستتفوّق الولايات المتحدة على الاتحاد السوفياتي في مجال التكنولوجيا، خصوصا بعد نجاح موسكو في الثاني عشر من نيسان – أبريل 1961 في إرسال يوري غاغارين، إلى الفضاء ليقوم بدورة حول الكرة الأرضية.

في ستينات القرن الماضي، كان الصراع على أشدّه بين النظامين الشيوعي والرأسمالي. جاءت خطوات نيل ارمسترونغ على القمر لتؤكد أن الولايات المتحدة ستكون صاحبة الكلمة الأخيرة في الصراع. كانت رحلة "أبولو 11- بمثابة ضربة قاضية للاتحاد السوفياتي الذي أظهر أنه غير قادر على اللحاق بالولايات المتحدة في مجال التقدّم التكنولوجي على الرغم من كلّ الصواريخ البعيدة المدى والقنابل النووية التي امتلكها. بعد الرحلة التي قام بها الرواد الأميركيون الثلاثة إلى القمر، لم يستطع الاتحاد السوفياتي تحقيق أي تقدّم يذكر في مجال غزو الفضاء أو الردّ على الأميركيين. فضّل الردّ على الأرض عن طريق حروب كثيرة في أنحاء مختلفة من العالم. صار له موطئ قدم في اليمن حيث وضع جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية (اليمن الجنوبي) في جيبه، وسيطر على إثيوبيا الدولة المهمة في القرن الأفريقي. تحوّل الاتحاد السوفياتي، شيئا فشيئا، إلى قوة مهيمنة، خصوصا بعد قمع ليونيد بريجنيف لـ"ربيع براغ" في العام 1968 مستندا إلى نظرية "السيادة المحدودة" التي باشر تطبيقها أوروبا الشرقية.

لم يحلْ غزو القمر دون هزيمة الولايات المتحدة في فيتنام التي انسحب منها آخر جندي أميركي في الثلاثين من نيسان – أبريل 1975، لكن رونالد ريغان ما لبث أن استعاد المبادرة ووجه ضربة قويّة إلى "إمبراطورية الشر" عندما جرّ الاتحاد السوفياتي إلى حرب وهمية هي "حرب النجوم" التي كشفت مدى ضعف القوة العظمى الأخرى في العالم على الصعيد الاقتصادي أوّلا.

بعد خمسين عاما على السير على القمر، لم يعد العالم أكثر أمانا، ولا الولايات المتحدة أكثر إنسانية في ظلّ رئيس هو دونالد ترامب لا يعرف الكثير عن العالم باستثناء أن إدارته تعرف جيدا ما الذي تمثّله إيران، كنظام، ومدى خطورتها على الاستقرارين الإقليمي والعالمي.

لم يكن النزول على القمر مجرّد بداية النهاية للحرب الباردة فحسب، كان أيضا فرصة كي تظهر الولايات المتحدة أنّها قادرة على ممارسة دور القوة العظمى القادرة على فرض الترويج لعالم أقل وحشية. لم يحصل ذلك بأي شكل بسبب أخطاء كثيرة ارتكبتها الإدارات التي تعاقبت منذ العام 1969. ريتشارد نيكسون، الذي قام في 1972 بزيارته التاريخية للصين، لم يستطع إكمال ولايته بسبب فضيحة ووترغيت. اضطر إلى الاستقالة في 1974. خلفه جيرالد فورد الذي لم يكن في مستوى الرؤساء الكبار، في حين لم يكن جيمي كارتر سوى رئيس ضعيف سمح لإيران بضرب هيبة الولايات المتحدة عندما عجز عن الردّ على احتجاز الدبلوماسيين الأميركيين في طهران. أمّا رونالد ريغان، الذي حقق الكثير في مواجهته للاتحاد السوفياتي، فكان ضحيّة الصفقة التي عقدها مع إيران والتي سمحت له بالانتصار على جيمي كارتر ومنعه من الفوز بولاية رئاسية جديدة في خريف 1980. كان كافيا أن تطلق إيران الرهائن الأميركيين قبل موعد الانتخابات الرئاسية كي يعود كارتر إلى البيت الأبيض، لكنها فضلت اللعب من تحت الطاولة مع ريغان الذي كافأها على خدماتها بتغاضيه عن نسف السفارة الأميركية ومقر المارينز في بيروت في العام 1983.

لا حاجة إلى العودة إلى عهد جورج بوش الأب الذي انشغل بمغامرة صدّام حسين في الكويت وكيفية وضع نهاية لها، ولا بالسياسة البراغماتية لبيل كلينتون الذي أمضى ثماني سنوات يدوّر الزوايا قبل أن يخلفه جورج بوش الابن الذي تسبب بالزلزال العراقي في العام 2003 بعدما فشل في الرد بشكل مناسب على غزوتي نيويورك وواشنطن اللتين قام بهما إرهابيون عرب تابعون لأسامة بن لادن في الحادي عشر من أيلول – سبتمبر 2001.

أخذ باراك أوباما أميركا إلى مكان آخر بسبب سياسته المعادية لكل ما هو عربي واختزاله أزمات الشرق الأوسط بالملف النووي الإيراني، مع ما يعنيه ذلك من سقوط في الفخ الذي نصبته له الجمهورية الإسلامية.

بعد نصف قرن على الخطوات الأولى على القمر، ستعود الولايات المتحدة إليه في السنة 2024، على الأرجح. هذا ما يريده دونالد ترامب. قد تعود وقد لا تعود، ذلك أن هناك جدلا واسعا محوره الفائدة من مثل هذه العودة. لكن السؤال يبقى أي أميركا ستعود إلى القمر... هل ستكون أكثر إنسانية وأكثر فهما لما يدور في العالم. لا شكّ أن الأشهر القليلة المقبلة ستكون حاسمة. سيعتمد الكثير على ما إذا كانت أميركا ستعرف قبل التفكير في القمر، كيف تردّ على التحدّي الأكبر الذي يواجهها حاليا على الأرض واسمه إيران...

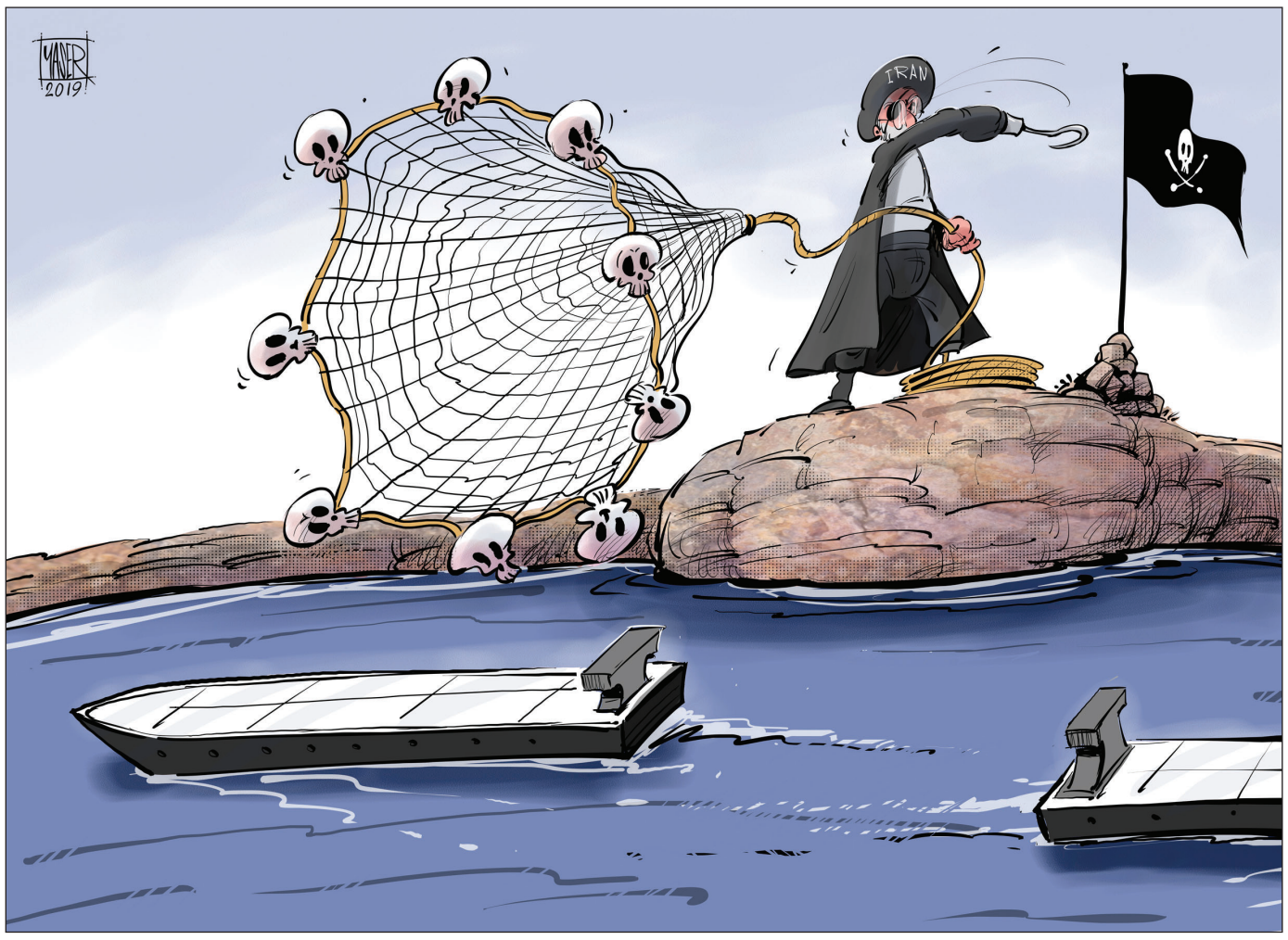

التفاهمات الخارجية لتسوية الأزمة السودانية

محمد أبوالفضل
كاتب مصري

لم تحظ أزمة سياسية في المنطقة باهتمام سياسي خارجي بمثل ما حظيت به الأزمة السودانية الراهنة.

ولو توفر جزء يسير من التفاعل الإيجابي مع أي من الأزمات العربية المتفاقمة لكان الكثير منها توارى أو على الأقل تراجعت حدته. فما يحدث مع السودان يشير إلى نمط جديد في التعامل الإقليمي والدولي. كما أن الدول التي خسرت بعد عزل الرئيس عمر حسن البشير لم تجرؤ على تبني توجهات معلنة ضد التسوية بين المجلس العسكري وقوى الحرية والتغيير.

أصبح التوافق الخارجي لافتا في حالة السودان. كلما شهدت أزمته انكسارا أسرعت جهات عديدة لإصلاحه، كي لا تصل إلى طريق مسدود. فالأمل لم ينقطع قبل توقيع الاتفاق السياسي بين الطرفين أو بعده، وعندما تظهر مطبات فجأة لا تتوقف خطوات رفعها على الفور، وتُبذل محاولات حثيثة لتذليل العقبات مهما بلغت ضخامتها، بل ووضع حد للتصورات الهدامة لدى القوى الممانعة، لترضخ وتقبل بما يُعرف بالإجماع العام، أو يتم تجاوز اعتراضاتها ووقف تحرشاتها.

فمن المهم أن تظل العملية مستمرة، ومنعها بأي شكل من أن تصل إلى درجة الانسداد التام واليأس من حلحلتها، كأن هناك توافقات ضمنية على عدم ترك الأزمة من دون رعاية صلبة تنقذها وتخرجها إلى بر الأمان.

لم يشهد السودان هذا النوع من الأزمات، ولم يمر بهذه الطريقة من التسويات. فكل التوترات السياسية والنزاعات الأمنية سابقا دخلت على خطوطها دوائر متباينة، محلية وإقليمية ودولية، وكانت الخلافات بين المتفاوضين ساخنة دوما، والدول والهيئات التي تصدت للوساطة كانت على طرفي نقيض في معظم الأحوال، بما ضاعف من صعوبة الحلول المطروحة. ويكاد بعضها لم يتحرك منذ اندلاعه وحتى الآن، على الرغم من التفاوت في الأسباب والدوافع والنتائج التي أفضت إلى وضع كل حالة في خانة ضيقة.

الأزمة الراهنة فريدة في كل ما يحيط بها. بدءا من الظروف التي أحاطت بها وحتى الحصيلة التي نراها اليوم. وفي مجملها جيدة بالنسبة لدولة شاسعة في حجم السودان وتركيبته السياسية المتنوعة ومشاهده المسلحة المفتوحة على كل الاحتمالات القاتمة. فضلا عن النزاعات الطويلة التي تتجاوز الحدود الجغرافية، وأدت في أوقات كثيرة إلى احتكاكات إقليمية غامضة، وحروب بالوكالة سافرة استخدمت فيها ورقة المعارضة للابتزاز والضغط على أطراف بعينها.

يفسر هذا التشابك جانبا من أسرار الاهتمام الخارجي بالأزمة وتدافع قوى عديدة نحو عدم التوقف عن بذل جهود كبيرة لوأد الفتن التي تطفو من وقت لآخر على السطح. ويبرر الإصرار الواضح بشأن عدم الاستسلام لمآلاتها الطبيعية، بل هناك حرص على توفير كل أنواع الدعم المادي والمعنوي، والحوافز التي ترمي لعدم التوقف عن التوصل إلى حلول خلاّقة تساعد على سد الثغرات التي كشفتها تفسيرات كل طرف لكثير من التفاصيل بخصوص الإعلان السياسي أو الإعلان الدستوري. فمن المهم ألا تتوقف عجلة التفاوض عن الدوران في الاتجاهات التي يمكن أن تفضي إلى تسوية ثابتة ومستمرة.

فشلت رهانات المجلس العسكري على الدعم الخارجي، الإقليمي تحديدا، باعتباره الجهة التي تجلب المساعدة والأمن والاستقرار للسودان. وأخفقت حسابات قوى الحرية والتغيير على تحقيق مكاسب كبيرة من وراء رفع شعارات مدنية صرفة، لأن الكثير من الدوائر المهمومة بمصير السودان وجدت ملاذا في ما يعتبره البعض "جمع بين نقيضين".

وأدت الأحداث التي مرت بها دول مختلفة في المنطقة إلى تزايد القناعات بضرورة التوصل لصيغة عسكرية- مدنية مختلطة، ومحاولة الخروج من شرنقة التنافر بينهما ووضعهما في كفتين متقابلتين، ما يحل واحدة من التناقضات التي تواجه بعض القوى الكبرى التي انحازت لقيادات أمنية على غيرها من السياسية.

خلّفت مساندة النظام المصري مثلا من قبل الإدارة الأميركية مرارة لدى البعض، خاصة أن الرئيس دونالد ترامب اعتبر القاهرة أحد أهم محاور الاستقرار في المنطقة، ويخوض الرئيس عبدالفتاح السيسي معركة ممتدة ضد المتشددين والإرهابيين، وكذلك الدعم الذي يلقاه الجيش الوطني الليبي بقيادة المشير خليفة حفتر، ما أوقع واشنطن في مأزق بين توفير الدعم المادي لمصر والمعنوي لحفتر، وبين المطالبات المستمرة لبعض أعضاء الكونغرس والمنظمات الحقوقية بالضغط لمزيد من الحريات. وكان السبيل لتجنب الحرج التوصل لصيغة مبدعة تتبناها دول متعددة، تؤكد مركزية الجيش كضامنة للاستقرار، والحكومات المدنية كضامنة للحريات.

ثمة فرصة لتغيير وجه السودان بدلا من الدوران في الحلقات السابقة دون خروج من صيغة حكم عسكري يعقبه مدني والعكس، والتي لم تعد صالحة، لأن البديل هذه المرة الطوفان، وهو ما ترفضه غالبية القوى الخارجية

يساعد نجاح تجربة السودان في الجمع بين النقيضين على فتح الطريق لحلحلة الأزمة الجزائرية، التي لم تجد الاهتمام الخارجي الكبير، كما هو حاصل في السودان، ربما لأن تطبيق نموذج العسكري والمدني يحظى بأفق أكبر في الثانية، أو لأن المكونات المتحكمة في الأولى أشد باسا، لكن التغلب على صعوبات الأزمة في السودان والالتفاف حول صيغة سياسية للحل قد يفتحان الأبواب والنوافذ المغلقة في الجزائر بعد أن سئمت هيمنة المؤسسة العسكرية، وقد يشجع على الاقتراب من التفاهم حول احترام الدور التاريخي للجيش هناك والتحولات التي حدثت وجعلت القوى المدنية رقما مستقلا وليس تابعا.

يأتي تكثيف التحركات الخارجية على السودان ليمنحه مجالا للتسوية ويمنع الدخول في مربع المزايدات التي تلفظ فكرة القواسم المشتركة، وعدم ترك الأمور لقوى محلية تفضل مواصلة الصراع السياسي سعيا وراء تحقيق أهدافها كاملة، بصرف النظر عن المنطقية والواقعية، على التوافق حول أفكار ووسائل يمكن أن تخرج السودان من أزماته.

وهذه واحدة من العقد التي جعلت كل تفاهم بين المجلس العسكري والحريّة والتغيير يصطدم بحائط جديد كلما تم تجاوز حائط قديم. الأمر الذي يستلزم وجود هيئة رئيسية راعية (الوساطة الأفريقية الإثيوبية) وهيئات أو جهات فرعية تقوم بمهام العراب (العرابين) لتجاوز العقبات، خوفا من انفلات الأزمة، وبالتالي صعوبة السيطرة عليها.

اندلاع صراعات عدة في المنطقة قدم هدايا ثمينة لحركات إسلامية متشددة ودول إقليمية طامحة وقوى دولية راغبة في تسييل المنطقة لتتمكن من إعادة صهرها وتركيبها بالصورة التي تساعدها على أن يكون لها مكان تحت شمس العالم من خلال التحكم في بعض المفاتيح، ما جعل قوى مقابلة تقلق من الأزمات المفتوحة على احتمالات مجهولة. واتضحت صعوبة إغلاق التوترات عندما تدخل على خطوطها حركات وفصائل ودول من مشارب مختلفة ولها أحلام سوداء. علاوة على ما تقدمه التوترات من فرص للتأثير على مصالح قوى منافسة.

ولعل الموقع الاستراتيجي الذي يحتله السودان يكشف عن جزء كبير من هذه المعادلة. وإذا انفلتت أزماته الظاهرة والكامنة من عقالها فسوف يكون من الصعوبة فرملتها، لأن امتداداتها الخارجية عميقة ومن السهل أن تجر خلفها دولا عدة بسبب التركيبة الاجتماعية والسياسية والأمنية المتشابهة.

كما أن السودان يتم تجهيزه ليكون دولة مفتاحا في منطقة القرن الأفريقي. لذلك احتلت أزمته مكانة متقدمة في أجندات كثيرة، ترى خروجه من محنته أول الخطوات الحقيقية لاستمرار مشروعات تنموية واعدة عبر التكامل الإقليمي، في حين يقود التوتر إلى الفوضى والانفلات والتخريب، ومن ثم قطع الطريق على الترتيبات التي تريد إيجاد محاور عملية للشراكة الإقليمية على أساس المنافع المتبادلة، وتحييد أو إبعاد الدول التي تمثل مصدرا للقلق.

تتوقف هذه التقديرات على مدى نجاح الأطراف الخارجية في إقناع القوى الداخلية بأن السودان يمكن قد يصبح بلدا عفيا، ما يستلزم تقديم تضحيات سياسية كبيرة من الجميع لتخطي التحديات التي لن تتوقف طالما هناك أحزاب وحركات تعطي أولوية لمصالحها على مصالح السودان.

ومن الضروري التيقن أن ثمة فرصة لتغيير وجه السودان بدلا من الدوران في الحلقات السابقة دون خروج من صيغة حكم عسكري يعقبه مدني والعكس، والتي لم تعد صالحة، لأن البديل هذه المرة الطوفان، وهو ما ترفضه غالبية القوى الخارجية، ويمنح تفاهماتها لتهيئة أجواء مناسبة أمام الأزمة الحالية وزنا كبيرا.